قصة فؤاد ورفقة محبوبته

بقلم الفقير فضل صالح

obeikandl.com

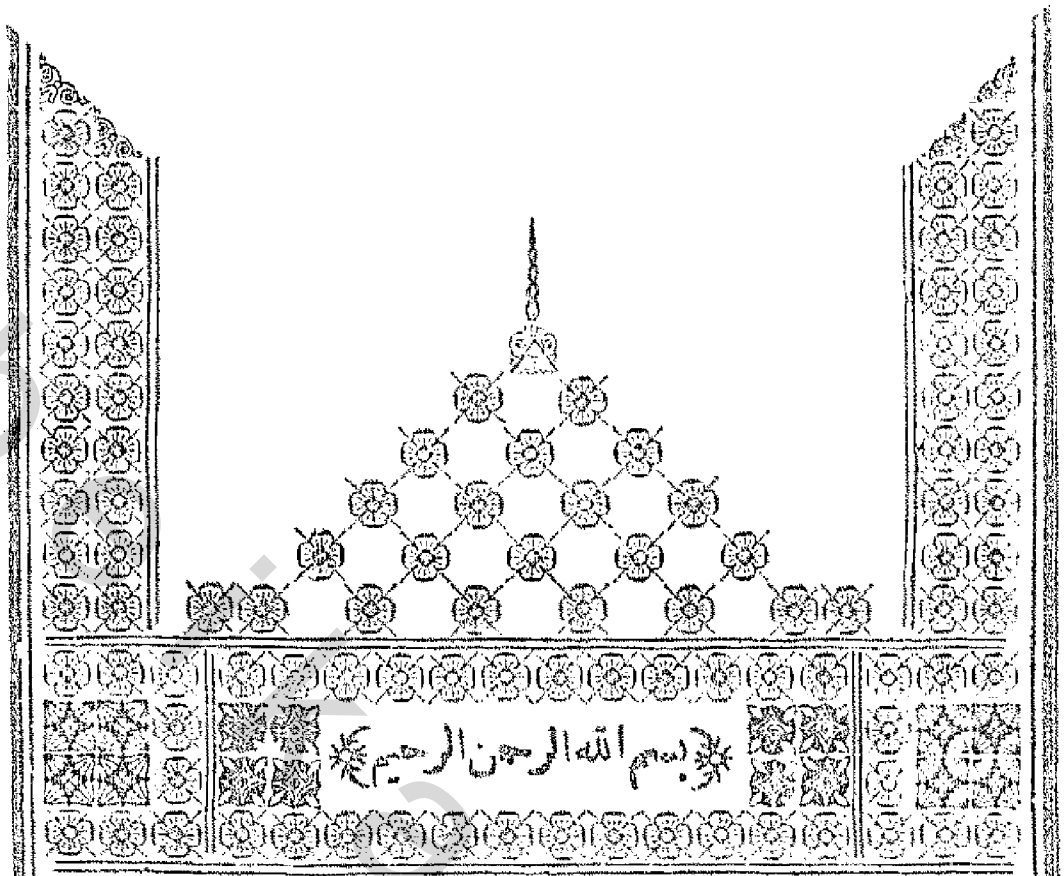
بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من زين الوجوه بالصباحه والاكف بوافر السماحه والقدود
بلطافة الرشاقه والالسن ببراعة اللباقه والصدور برمان النهود
والخدود بزاهي الورود والجباه ببياض البلج والعيون بسواد الدعج
فأسأله بحق أنبياه أن يباهينا فيما قصدناه وبعد فيقول الشاب
الناصح الفقير نخله صالح من المعلوم ان القصص العشقية
التاريخيه عبرة لمن تبصر من شبان البرية وقد نصبت نفسي
لارشاد أبناء جنسي من نظر نظره فأرشته ألف حسره فأوردت
قصة عشقية تتضمن وقوع بعض الشبان في بليه وانما أوردتها
للقارئ ليتدبر في أمر دنياه ويتبصر في عاقبته وأخراه فلا يغتر
بخداع عربات الخجول ويتعلق بقولهن من القلب للقلب رسول من
تزيه أنهم اتهواه وأنه لاعجوبه لها سواه فتزداد بها محنته وربما

نالت فيها مهجته كما وقع فى قصة (مانون) امرأة كانت باوروبا
احبت بعقول كثير من الشبان الالبا لانها كانت كثيرة العشاق
فألقت كلا منهم فى ضيق الخناق فاياك ومثل هذه الخداعة ذات
الفجور والرقاعه

(سبب سوق هذه القصة)

بينما انا ذات يوم من الايام جالس وليس معى أحد من الخدام وكان
ذلك فى شهر شباط والمحل صاف من الالغاط اذ وضع بين يدى علبة
صغيرة ذات قفل وثيق ومفتاح محكم دقيق لا أعلم من صنعها ولا
أدرى من وضعها ومعها خطاب لم أقف على كاتبه ولم أر حلية
صاحبه ففتحته فرأيت فيه ما صورته

تحريرا فى مصر سنة *١٨

يشق علىك ان تعرفنى ذا الحين وقد أودعت بين يديك أسرار شخصين
وانى مسافر فى غاية الاكتئاب وشدة ما أقاسى من أليم العذاب ولا
أعلم هل لاترانى ولا أراك أو ترانى بعد طول فحصل الراحة اذ ذاك
فسوف أطلب منك هذه الامانة والا فاطلع عليها وافعل بها ما تريد
مع مراعاة الصيانة ودمت كما رمت

فاهملت هذه العلبة وبعد مضى ثمان سنين فى أثناء ما كنت أنتقل
أمتعتى الى بيت كنت بنيته وقع بصرى على هذه العلبة بالصدفة
ففتحتها فوجدت فيها هذه الكتابات شتى ومذكرة تحتوى على ملخص
الحكاية التى ستتلى عليك الا انى لاجل الستر غيرت فيها بعض أسماء
أشخاصها صونا للسر حيث ان أكثرهم لم يزل على قيد الحياة

(ذكر القصة)

كان فى قديم الزمان وسالف العصر والاوان شاب يدعى فؤادبن
شاه بندر تجار احدى بلدان الشرق وقد توفى أبوه بعد ولادته بمدة
يسيرة فربته امه الى أن بلغ من السن ثنتى عشرة سنة وبعد ذلك
أخذه أحد أصدقاء عائلته وأدخله احدى مدارس فرانسا الشهيرة
وبعد ان أتم علومه فيها اتخذه ذلك الصديق رفيقا له فى سياحته
واسفاره لتعليمه وتدريبه على أحوال هذه الدنيا والزمان ولان ذلك
كان جل قصده ورغبته وبينما هو فى هذا السفر اذ ورد عليه الخبر
بان والدته من المرض فى حالة الخطر حيث لم تنقطع بينهما الاخبار
فلم يتأخر عن الرجوع الى مصر فى الحال لكنه تأسف حيث لم يتسل
برؤيتها امرة أخرى قبل موتها لانها كانت قد انتقلت من هذه الدار
الفانية الى تلك الدار الباقية فى اثناء عوده ولم يرها فهذه الحادثة
التى صيرته وحيدا كدرته غاية الكدر ووالت عليه الضجر خصوصا
لما أصابه أيضا من القضاء والقدر حيث مات صاحبه ورفيقه منذ
كان فى السفر ومع تردد بعض الاحباء اليه لتسليته ما كان يصغى
ولا يلتفت اليهم بل انفرد عن الناس والتجب من اجتنابه أيضا الملاهى
والتمالى مع ان عمره لم يزد عن العشرين سنة وهو سن الاشتغال
باللذات والمسار ولم يزل على هذه الحالة مدة من الزمن الى ان دخل
شهر شباط سنة ١٨** فبينما هو جالس فى بيته متفكر فى أحوال هذه
الدنيا الفرق عليه بابه فلم يلتفت لكثرة اشتغال فكره ففتح الخادم
عليه الباب ودخل ماسكا بيده طبقا من الفضة البيضاء وعليه خطاب
فاتبه اذ ذاك لنفسه وقال للخادم من الذى أتانى بذلك فاجابه قائلا ان
خادم علاء الدين هو الذى أحضره وهو منتظر لرده فبعد ما فض ختامه

وقرأه قال له بكسل اذهب وقل له السمع والطاعة وبعد ما خرج الخادم أعاد بكر وقرأ هذا الخطاب وكان يحتوي على هذه العبارة المختصرة
ياعزيزي لماذا الانزال الآن في جمعياتنا المختصرة ولاي سبب لم تزل
متوحشا في انفرادك عن أحبائك وأصحابك فاصغ كدرك وغمك
بهذا المقدار وحضر عندي الآن فاني محقق انك تتسلى وتزول
عنك هموم

(من حبيبك الصادق علاء الدين)

وبعد تكراره قراءة هذا الخطاب ضحك وقال ما أظن وجود شيء
يسليني أكثر من هذا من المال ثم قام ولبس ملابسه وأمر باحضار
العربة وركب وتوجه الى حبيبه فاستقبله بحال وصوله بفرح من صميم
الفؤاد وخلوص نية وصدق وداد ولما دخل محل الجلوس صاح
كل من كان هناك فرحا فقال الاصغر بفرح وسرور وحسن اسمه
بجعفر ما أعجب ذلك الاتفاق والعالم في بحور التهاوي وأما فؤاد فانه
صاعد وفائق ثم قال علاء الدين الله أكبر ولم يتم كلامه اذ قال فؤاد
ليت الشباب يدوم لنا والصبا وصار كل منهم يحييه حيث لم يره منذ
مدة من الزمن لان فؤادا لم يتسل في تلك الليلة فلم يمكن الحق على
جعفر (الذي كان شابا نديما خصوصا لفؤاد) لانه مدعو في تلك الليلة
مثل علاء الدين وفؤاد عند شخص يدعى السيد حسن وهو رجل
متوسط الحال في الاقتدار لكنه ذو فطانة تامة وكان يرغب كل
انسان في صحبته لكنه لا يسمح بصحبته ومودته لكل انسان أراد ذلك
من أول مرة بل كان أولا يباشر من يريده ليمتحنه ثم يرغب في حضوره
في جمعياته المختصرة ولذلك كانت تلك الجمعيات مرغوبة للجميع

ان

وكثير من الناس يشتهيها الآن قل من كان يظفر بها وذلك انها
مع اختصارها ممنوع فيها التكلم بالغيبة والنميمة ولا يتحدث فيها الا
بما يختص بالملابس وما أشبهها بين النساء وبالسياحات والصنائع
وما يماثل ذلك بين الرجال ولم تكن تحتوي على شيء من الموسيقى
الا القليل لكن من أعلى واحسن الضرب والايقاع فحسدت فؤادا
احباء علاء الدين لزيادة الالتفات اليه لكن صار كل منهم تارة يهنيه
وتارة يتوسل اليه ويرجوه ويقول له تحفظ على فؤادك يا فؤاد فان
عندك ثلاثا من النساء ربما جذبوه منك فاحذر من الشقراء لانها
كالنيران الواقدة وخف من السمراء لانها كالنيران الخامدة ونحو
ذلك من الكلام وكل ذلك لم يؤثر فيه بل كان يجيب كلا منهم عن
كلامه بشاشة وطلاقة وجه ثم لما سمعان الوقت قام الشبان الثلاثة
وتوجهوا الى دار السيد حسن المذكور وحال وصولهم تقدم علاء
الدين وعرف صاحب الدار بفؤاد فاستقبله وأكرمه غاية الاكرام
وأجلسه وسامره بلطيف الكلام والواقع ان تلك الليلة كانت ليلة
مختصرة لانه لم يكن هناك الا اثنان أو ثلاثة من الناس ثم حضرت ثلاث
خرائم جالبات معهن التفريح والسرور وجلسن وكن ثلاث
اخوات حسان فالكبرى وكانت تدعى تاج البهاء كانت سمينة الجسم
وظهر فيها الاكتئاب بجميعها وذلك من سوء الحظ كانت تشبه على
الحانسرين غير معتنية باسمهم وكأنها تقول التفتوا الي واعشقوني
وأما الثانية وكانت تدعى وردجنه فكان عمرها وقتئذ خمس وتسع
عشرة سنة وكانت كالزهرة لتاج البهاء ذات شقرة تشبه شقرة الحنطة
وقدها المعتدل وقوامها الفتان كانه غصن الزنبق أو عود البان وأما

بياض لونها الشاهق فكلون زهر الزنبق وزرقة عيونها تزيدها حسنا وجمالا وأما الصغرى وكانت تدعى رنقه فلم يبلغ سنها الذ ذلك سبع عشرة سنة وكانت حكاية الزهر في الاكمام وهي وان انتقلت من سن الطفولية لم تصل الى سن النساء وحنطي لونها وسواد شعرها يأخذان بلب كل من نظر اليها وقوس حاجبها وسواد عينيها يفتنان ويسحران كل من أقبل عليها وكانت مربوعة القامة مليحة الجسم ذات أيد وسيقان ملتفه وأقدام بالرقة والاعتدال والحسن محتفه وهي وان لم تكن أحسن اخواتها كانت أظرفهن طبعا يصدق فيها قول الشاعر

نالت على يدها مالم تنله يدى * نقشا على معصم أرهت به جلدى
كأنه طرق نمل فى أنامله * أو روضة رصعها السحب بالبرد
خافت على يدها من قبل مقلتها * فألبست زندها درعا من الزرد
مدت مواشطها فى كفها شركا * تصيد قلبي به من داخل الجسد
وقوس حاجبها من كل ناهية * ونبل مقلتها ترمي به كبدى
وعقرب الصدغ قد بانت زبانته * وناعس الطرف يقظان على الرصد
ان كان فى خلنار الخد من عجب * فالصد يطرح رمانا لمن يرد
وخصرها ناحل مثن على كفل * مرجرج قد حكى الاحزان فى الخلد
انسية لو رأتها الشمس ما طلعت * من بعد رؤيتها يوما على أحد
سألتها الوصل قالت أنت تعرفنا * من رام منا وصالا مات بالكمد
وكم لنا عاشق فى الحب مات جوى * من الغرام ولم يبدئ ولم يعد
فقلت استغفر الرحمن من زلل * ان الحب قتيل الصبر والجلد

وبعد ما جلسن برهة تعرفن بفؤاد وصاريتهم محاورات عمومية

لم تنقض الا عند ما حضر الطعام على حسب العوائد الشرقية وبوجه
المصادفة وجد فؤاد نفسه بجانب رفقة فعاملها أحسن المعاملات
التي تليق بالنساء أمثالها وبعد ما أكلوا من ذلك الطعام اللذيذ قام
كل من المغانيم فدخل القصر المعد للجلوس وروائح المسك فائحة
من جميع أركانه وكان فيه من المخلات ألذها وأشرفها ومن
المشروبات الذكية أروقها وأنطفها فدار الكاس والقدح وشرب
كل منهم وطاب ولقد صدق من قال في مثل هذا المقال المستطاب

خذ فرصة اللذات قبل فواتها * واذا دعيت الى المدام فواتها
واذا ذكرت التائبين عن الطلى * لاتنس حسرتهم على أوقاتها
يرنون بالالحاظ شزرا كلما * صبغت أشعتها أكف سقاتها
كاس كساها النور لما ان بدا * مصباح ضوء الراح في مشكاتها
صفها اذا جليت باحسن وصفها * كي تشرك الاسماع في اذاتها
لولا التذاذ السامعين بذكرها * اغنيت عن أسمائها بسماتها
واذا سمعت باسم شخص اظهر * عنها الفخار فذاك من آياتها
ذنب اذا عد الذنوب رأيته * من سعته كالمال في وجناتها
راح حكت ثغر الحبيب وخده * بحبابها وضيائها وصفاتها
فكأنها في الناس قابل صفوها * وجه الحبيب فلاح من مرآتها

وبعد ذلك قام صاحب الدار وناول رفقه قيثاره (نوع من آلات
الطرب) وطلب منها ان تسمع الجمعية وتطربهم بحسن صوتها فلم
تمتنع وتناولتها وشدت أوتارها وأنشدت تقول

ناعس الاجفان لما * زارني وقت الصباح
خلته بدر تمام * في سماء الروض لاح

دور

لامنى العاذل فيه * ولحانى كل لاح
هل يجوز اللوم فيمن * عقله فى الحب راح

دور

راعت العذال عنا * وبدا نجم الفلاح
فى رياض من اقاح * بين غيد وملاح

دور

قام محبوبى فيه * يزدرى سمر الرماح
همت وجدا وهواه * لاح لى فيه افتضاح

ولما انتهت من انشادها لم تزل السامعون صاغين لذلك الصوت الرخيم وصار كل منهم بعد ذلك يحييها ثم قام صاحب الدار وأخبرها بانه لم تقل فى عمرها أبياتا ولا انشدا أحسن وأحسن منه فى تلك الليلة هذا ما كان من أمرها وأما علاء الدين فانه قال ان لفؤاد دراية بهذا الفن فعرضت القيثارة عليه وصار كل انسان يطلب منه ويرجوه بان يسمعهم شيأ فتناول القيثارة وأنشد يقول

يا بدور الشام رفقا * هجركم أضنى فؤادى
بلغونى اليوم وصلا * انه أقصى مرادى

فعندما سمعت رنته هذين البيتين احمرلونها مرتين أو ثلاثا لانها كانت جالسة مع أختيها قدام فؤاد ثم قامت من جانبيهما وجلست بجانبه لتحميه مثل ما حياه كل من الحاضرين ولكنها لم يمكنها ان تقول الا بعض كلمات غير مفهومة وعندما التفت فؤاد اليها زاد خجلها واحمرارها لان قلبها كان قد انجذب اليه من أول وهلة وصاروا لون خدها كلون

الورد فلله در من قال في مثل هذا الحال

بفؤادي من فهنا ما سريستر * بقوام سوى الجمال واسرز
رمت منه الوصال فازداد تيها * واتتلى سيوف لحظيه أبرز
وانثنى يطلب القتال فقلت * ومن الخد والورد طرز
ليس بي حاجة لحربك واني * لارتشافا من ثغرك أعوز
* فتثنى يميس عجبا ونادى * أي شرع لرشف ريق مجوز
قلت شرع الهوى أباح ارتشافي * واعتناقي ذاك القوام المعزز

ومع ذلك فؤاد لم يحصل منه أدنى التفات مع ان رفقته بدون تبصر تركت نفسها على هوى قلبها الما وجدت عندها ضرورة الاصغاء لما قاله فؤاد وبعد لحظة التفتت اليه وقالت يا سيدي ان علاء الدين أخبرنا بان بيتك في طريق بيتنا فقال نعم يا سيدتي فقالت فهل يمكنني حينئذ ان أرجو لك التوصل الى آثار أختي الى بيتنا فاجابها فؤاد بالسمع والطاعة لكنه تعجب في نفسه من طلب مثل هذا من انسان لم يسبق لهما معرفة قبل هذه الليلة ثم بعد ما سيوا صاحب الدار تحية الانصراف قاموا وانصرفوا وصارت رفقته تتوسى قلبها في الطريق خوفا من أن تظهر عليها حالة العشق الذي أتاها بغتة لكن هذا الامر لم يخف على أختيها اللتين صارتا في غيرة كبرى منها لاعتقدان اسعدا هما تعشق فؤاد لكنهما أعرضا عنه نظرا لمحبة رفقته له ولم يزالا على هذه الحالة الى أن وصلن الى بيتهن واستمد فؤاد لمفارقتهن فقالت رفقته له هذا هو بيتنا يا سيدي وأظن انك تتذكره حيث عرفت طريقه لتشرفنا بزيارتك لنا بعض الاحيان فاجابها فؤاد بالسمع والطاعة وتشكر لها قائلا ان السرور ان كان منقسما بيننا يكون لي منه الحظ الاوفر

وبعد

وبعد ذلك صاحت فحمة الانصراف وتوجه الى بيته ونام تلك الليلة كالعادة هذا ما كان من أمره وأما ما كان من رفقته فان أختيها صارتا يستهزئان بها ويضحكان عليها ويريانها مما يصيب كثيرة في فؤاد كانت تراها في نفسها فتحمل لها من ذلك كدر عظيم لكنها لم تظهره لهما ومن شدة كراهتهما لهذا الامر انتهيا الى كونهما يسمعانها مالا يرضي خاطرها ولقطع الكلام في هذه المسئلة تركتهما ورجعت بيتها وبقيت طول الليل تارة تبكي وتارة تتذكر ما أنشده فؤاد وكلما تتصوره أنشد ذلك عليها يزداد حبه في قلبها فالله در من قال في مثل هذا الحال

سل في الظلام أخا الهدى عن سهري
تدري النجوم كما يدري الورى خبري

أبيت أهتف بالشكوى وأندبها
وأنثر الدمع وأنثر زاد صبري

حتى أخيل أني شارب ثمل * بين الرياض وبين الكاس والوتر
من لي به اختلفت فيه الملاحة اذ * أومت الى غيره ايماء محتضر
بخده لفؤادي نسبة عجب * كلاهما أبدا يدعى من النظر
بعض المحاسن يهوى بعضها طربا * تأملوا كيف هام الغصن بالحور
جرى القضاء بان اشقى عليك وقد * أوتيت سؤلك يا موسى على قدر

ولم تذق لذيذ النوم طول ليلها الى ان أصبح الصباح وأضاء الفجر بنوره ولاح وفي اليوم الثاني أخذت تبحث عن الطريقة التي يمكنها بها أن ترى فؤادا ولم تزل على هذه الحالة مدة أيام فالنصيب المحتم المقدر لكل عاشق أورد على بالها الطريقة وذلك انه بلغها ان فؤادا مشغول ببعض

مقدمات امرس أحمد أفاربه يحضرفيه كثيرمن الاحباء فاخذت فى
الطرق الموصلة الى أن تكون هى وأختاها من جملة المدعوات فى
تلك المقدمات فضمرن فى تلك الولائم لكن رفقه منوفاء ن كلام
أختيها لم يمكنها هنالك التقرب من فؤاد لانه كان مشتغلا بقية معازيه
ولم يلتفت لنظر رفقه الذى لم يتحول عنه لحظة واحدة وعدم التفاته
لها كان سببا لتقلبت قلبها فكانت تارة تريد ان تكشف أمرها عليه
وتبوح بما عندها اليه وتارة تتثنى وتتخيل فصارت فى حيرة عظيم
لعدم معرفة فؤاد ما بقلبها وكيف لا يحس ولا يشعر به مع ان المثل
السائر يقول ان من القلب للقلب رسولا ثم فى آخر الليالى بينما فؤاد
كان يحيى معازيه تحية الانصراف اذ أحس بارنها شريدرفقة فى يده
عند ما أتى اليها وحياها فلم يمكنه أن يحول نظره عنها الى أن خرجت
وغابت عنه فلما وجد خجلها واصفرارلونها وخفقان قلبها الزائد خاطبه
الشك وصار يتأمل فى حقيقة هذا الامر لكنه لفطنه انه لا يدرك
ان اطلب يأتى على هكذا بغتة ضبط نفسه ولم يظهر ولما انفرد عن
الناس أخذ يتفكر فى هذا الامر ويقول فى نفسه من أى شئ انتج
اندهاشها وخجلها وفى أثناء تفكره أحاطت به جملة أفكار ما كانت
تخطر له على بال وصارت تريه انه ربما يكون هو السبب لمارآه فى رفقه
وبقى على هذه الحالة طول ليله مراعيا نجوم السماء متفكرا فى هذا
الامر ولم تزل عنه صورة رفقه حيث ازدادت عنده قيمتها لانه لم يعتبرها
من قبيل الاكبقية النساء وصار كلما يزداد تأمله فيها يراها أحسن
وأجمل من أول وحصل له تلك الليلة ما دعا لان يتمثل بقول الشاعر

ما بين معترك الاحداق والمهج * أنا القتيل بلا اثم ولا حرج

ودعت قبل الهوى روحى لما نظرت

عيناى من حسن ذاك المنظر البهج

لله أجفان عين فيك ساهرة * شوقا اليك وقلب بالغرام شج

واضلع نحلت كادت تقوّمها * من الجوى كبدى الحرا من العوج

وأدمع هملت لولا التنفس من * نار الهوى لم أكد أنجو من اللجج

وسيدا فيك استقام خفقت بها * عنى تقوم بها عند الهوى حجبى

أصبحت فيك كما أمسيت مكتئبا * ولم أقل جزعا يا أزمة انفرجى

أهفو الى كل قلب بالغرام له * شغل وكل لسان بالهوى لهج

وكل سمع عن اللاحى به صمم * وكل جفن الى الاغفاء لم يعج

لا كان وجد به الاماق جامدة * ولا غرام به الاشواق لم تهج

عذب عيشك غيرا بعد عنك تجد * أوفى محب بما يرضيك مبتهج

وحسن بقية ما أبقيت من رمق * لا خير فى الحب ان أبقى على المهج

من لى باتلاف روحى فى هوى رشا * حلو الشمائل بالارواح ممتزج

من مات فيه غراما عاش مرتقبا * ما بين أهل الهوى فى أرفع الدرج

فان تأى سائرا يا مهجتى ارتحلى * وان دنا زائرا يا مقلتى ابتهجى

قل للذى لامنى فيه وعنفنى * دعنى وشأنى وعد عن نحلك السمج

فاللوم اغرم ولا يمدح به أحد * وهل رأيت محبا بالغرام هجى

يا ساكن القلب لا تنظر الى سكنى * أرح فؤادك واسدل رقعة الدعج

تبارك الله ما أحلى شمائله * فكم أماتت وأحيت فيه من مهج

يا روى لذكراه من بل فى عذل * سمعى وان كان عذلى فيه لم يلج

وأرحم البرق فى مسراه منتسبا * لثغره وهو مستحى من الفلج

بحق عصيانى اللاحى عليك وما * باضانى طاعة للوجد من وهج

انظر الى كبد ذابت عليك جوى * ومقلة من نجيع الدمع فى لجج
وارحم تعثر آمالى ومرتجى * الى خداع تفى الوعد بالفرج
واعطف على ذل اطماعى بهل وعسى

وامنن على بشرح الصدر من فرج

فهكذا أحوال الزمان أقل الشئ يغير الانسان لان فؤادا فى اليوم الثانى وجدان الانفراد لا يطاق ولا يحتمل فاراد الخروج لتنزيه أفكاره فشد فى الحال على بدواده وذهب الى كانة المحلات المعدة للنزاهة مؤملا ان يتفارج من لم تبرح بفكره طول الليل لكن أمله لم يصادف محلا فلم يرها فرجع الى بيته فى غاية الكدر وازداد به القلق والضجر حتى انه لما حضر الطعام لم يذق منه الا القليل حيث ان أفكاره لم تكن مشتغلة الا بهاتين الكلمتين أين وكيف يمكننى أن أرى هذا الغزال وبينما هو فى هذه الحالة اذ وردت على باله فكرة غيرت أحواله فقام مسرعا الى صاحبه علاء الدين قائلا فى نفسه لابد من انه يعرفها هى وأختها وبهذه الواسطة يمكننى أن أرسو منه عليها والواقع ان علاء الدين كان يعرفهن ولذا أخبر فؤادا عند ما عرض عليه حاله بان بينه وبين خالهن وداد اعظيما وكن مقيمات عند خالهن لعلم ماله من الذرية فانه أخذهن وربا هن بعد وفاة والدهن ففرح فؤاد اذ ذاك غاية الفرح وزال عنه الهم والغم والترح لانه لم يسبق له معرفة العشق ولم يجربه سوى بعض علائق خفيفة لم تصب باله ولم تغير حاله ولذلك كان كلما يتذكر رفقه يحس بشئ لم يرد عليه طول حياته فيسأل نفسه قائلا هل أنا حقيقة عاشق ثم قام علاء الدين وفؤاد وسارا الى عبد المجيد خال رفقه واستعمل الحيل اللازمة حتى عرف عبد المجيد

بفؤاد ولزيادة حظه صار مقبولا عنده غاية القبول ووقع بينهما حب
ووداد لان فؤادا نظر الماحواه من الخصال الظريفة فيما كابده من
الاسفار البعيدة والمعاشرات المديدة عرف ان يسلك المسالك
الجيدة مع خل محبوبة قلبه الوحيدة وعبد المجيد وان لم يكن من
محب المحاورات والمناقشات كان يحب سماع ذلك ممن هو عذب
التكلم فاتحد بعد ذلك مع فؤاد اتحادا عظيما ولم يفارقه الا في النادر
رغما عنه وكانت رفقه تحضر في بعض الاحيان تلك المحاورات
وتزداد حبا لفؤاد

ثم ان البرم الذي يظهر فيه حب رفقه وفؤاد لبعضهما لم يبطئ وذلك
ان الاحوال ألزمت عبد المجيد بالتغرب مدة أسابيع لاشغال ضرورية
هذا ما كان من أمره وفؤاد في ذلك الوقت لم تقصر مجالسة زيارته
الاعتيادية بل صارت تستطيل لانه ابتدأ في أول المزار بالجلوس هنالك
ساعة ثم اثنتين ثم زيادة على التدريج وأما تاج البهاء التي كانت تتيه
دلالا وتعرض عن فؤاد بدون ان تعرف لذلك سببا فما كانت تطيل
الجلوس معه واما ورد جنه التي كانت تحب أختها حبا شديدا فلما رأت
شدة عشق أختها لفؤاد احترق لقلبها فظنت ان من الواجب عليها أن
لا تطيل الجلوس معهما فحصل لفؤاد من ذلك كدر لانه ظن انهما
يقصدان بذلك طرده فظهر عليه الخجل حتى ان رفقه وقعت من هذا
الامر في بحار الفكر والاحزان مع ان ورد جنه لم تفعل ذلك الا انظرا
لمعرفتها ما يطلب أختها التي من وقت وقوع نظرها على فؤاد لم تكن
تهنأ لا بطعام ولا نوم وجدا وشوقا الى محياه وصارت هي الكاتبة
لاسرارها لكن فؤاد لم يغير عادته في زيارته لرفقه ولم يزالوا على هذه

الحالة الى ان كان يوم من شهر آذار الذى كان فيه الهواء فى غاية اللطف
والتعطير والازهار قد فتحت أكمامها توجه فؤاد اليمن كعادته ووجد
الاخوات الثلاث وبعضا من الناس التى كانت دعتهم ورد جنه للحضور
اليمن فلم تمض ساعة حتى قامت ورد جنه ودعت الحاضرين الى
البستان الذى كان تحت قصرها من فتاح البها نزلت قبل الجميع لتظهر
نفسها لانها كانت رأت شابا جميل المنظر الا انه كان فى غاية الجهالة
خصوصا فى مواد التكلام ولو انه كان يظهر خلاف ذلك وتبعها كل
من المعازيم هذا ما كان من أمرهم وأما فؤاد الذى كان تضايق من
وجود هؤلاء الناس ولم يظهر لهم ذلك حيث كان يجيب كلا منهم عما
يسأله عنه بلاطفة وأدب وبشاشة وجه فانه لما انتبه من أفكاره
وجد نفسه مع رفقه فقط فتحير برهة فى أمره ثم قام وعرض عليها ان
تقوم معه وتتبعه فامسكت يده ولم تضبطها حتى صارت ترتعش
ووقفت فى الحال على فرش كانت هناك مفتشة عليها فصار فؤاد
يركض يمينا وشمالا ولم يجد عنده كلمة أو صوتا للصياح لكن هذه الحالة
لم تطل وانتبهت رفقه من غشيتها وهى تقول يا عزيزى يا فؤاد فلما سمعها
لم يتمكن من السكوت وجثى على ركبتيه بين يديها وصاح قائلا يا رفقه
ياعزيزتى هل صادف أحد أهل هذا الوعد ما عندى للثمن الحب
فلم تجبه الا بالتفاتة كانت فتح لباب السماء وتخيل ان تلك الالتفاتة
القصد واعتقدها تامة فى بحار العشق والغرام وتنابات شفتاهما
بعضهما وهن شدة عشقهما البعض ما نسيا وجود هذه الدنيا بعدهما
فظلا حينا ولا تسأل عن السرور وقد صدق من قال فى مثل هذا الحال
العطر

لم ينظر الانسان أحسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما حلل الرضا * متوسدين بعضهم وبساعد
واذا تألفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب فى حديد بارد
واذا صفا لك من زمانك واحد * فهو المراد وعش بذاك الواحد

ثم تكاثرت زيارة فؤاد لرفقة بعد تلك الليلة وأما تاج البها التى كانت معرضة عنه فكانت تشك فى محبته لرفقة وأرادت بذل مجهودها فى منعه عن الدخول اليمن ولكن لورد جنة الفضل فى انها كانت تمنعها دائما عن مثل هذه الفعال ثم ان فؤادا ورفقة وان مكثا على هذه الحالة السعيدة أياما عديدة لم يمكنهما كثرة المقابلة والاجتماع على حسب رغبتهما الى ان عاد عبد المجيد من السفر وجدد العزائم والسهر فكثر تردد فؤاد عليهم وكان عشق رفقة له زادها حسنا وجمالا وقد صدق فيها قول من قال

يا ما أميلح كل ما يرضى به * ويرضاه يا ما أحيلاه بنى
لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحة * فى وجهه نسى الجمال اليوسفى
أو لو رآه عائد أيوب فى * سنة الكرى قد ما من البلوى شفى
حكل البدور اذا تجلى متهلا * تصبو اليه وكل قد أهيف
ان قلت عندى فلك كل صبابة * قال الملاحة لى وكل الحسن فى
كملت محاسنه فلو أهدى السنا * للبدر عند تمامه لم يخسف
وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف
ولقد صرفت لحبه كلى على * يد حسنه فحمدت حسن تصرفى
فالعين تهوى صورة الحسن التى * روحى بها تصبو الى معنى خفى

ورفقة وان كانت محاطة بكثير من العاشقين لها المنتظرين لافاقتها

واحدة أو تبسم منها لم تلتفت لاحد منهم لاشتغالها بما هو عندها ألذ
وأطرب ولم يكن مفتاظا من أمورها الا أخها تاج اليها فكانت
تحقد عليها وتدبر طريقة لتخليص ثأرها وهذه بعض طباع النساء
لان المرأة تارة تغير من تكون أحسن وأجمل منها وتسعى دائما
في ضررها وتارة تغير من امرأة أخرى تكون محبوبة لابقصد أن
تأخذ منها محبوبها كانها لاتدري ماذا تفعل بل هي في مثل هذه
الاشياء كالاطفال المدعية الادب الذين لايقبلون ما يعطونه من
الحلاوات لكنهم يصرخون ويبكون اذا أعطيت لغيرهم ومع ذلك
فالشيطان الذي يسعى دائما في فعل الشر صار مساعدا لتاج اليها
وذلك ان فؤادا كان يعانق رفقة صبيحة ليلة كالعادة قبل ذهابه من
عندها الى بيته اذ قالت له بتولع زائد ما أعظم محبتي لك وهل تحبني
أنت أيضا فقال لها اني أحبك من دون شك حبا وصل بي الى درجة
الجنون فقالت وهل تحبني رغما عن طباع أنثى غيرك لهيدة فقال اني
أحبك على أي حالة فقالت أتحلف لي بذلك فقال نعم فقالت مادام
الامر كذلك خذ هذا المفتاح الذي على الطاولة وافتح به باب بيتي
في أي وقت تريد الحضور عندي من دون أن يشعر أحد من اخوتي
فاحتضن يديه رأسها مع تلك الشعور المسبولة على ردفها وقبلها
قائلا ومتى أراك فقالت لمتى تشاء لكن حيث اتحادنا صار في العدد
أنا واختاي وخالي في عرس ومن المتعذر علينا التوجه اليه فلا يمكننا أن نرى
بعضنا الا بعد يومين فقال لها احتفظي سنرى بعضنا بعد ذلك فقالت
فاذا تحبني قليلا فقال انا لا أعلم ولكن أظن نعم وبقيا محتضنين
بعضهما حسنة ثم قبلها قبلة أخرى وانصرف وكان الطريق وقتئذ

خاليا ولم يزل أهل البلد في غفلة النوم ونسيم الصبح طائف في طرقها التي سيثور فيها صريخ سكانها بعد ساعات قلائل عند ذلك تخيل فؤاد ان تلك المدينة المستغرقة في بحار النوم كانها في ملكه وفي حيازة يده وصار يبحث في فكره عن أسماء من كان حاسدا لهم ولم يتذكر أحدا الا ويرى نفسه أحسن منه وفي الحقيقة ان من السعادة الكبرى ان يجد الانسان نفسه محبوبا بالشابة بديعة الجمال محجالها خصوصا اذا كان بيده الفرصة في كونه يراها في كل وقت وانه دائما شاغل فكرها ولا يبرح عنه فكان في هذه الحالة وجد نفسه سعيدا محبا بنفسه شاكرا لله الذي أتاح له ذلك وبقي على هذه الحالة الى ان وصل الى بيته ونام وهو غريق في بحار تلك الافكار ينطبق على حاله قول الشاعر

زدني بفرط الحب فيك تحيرا * وارحم حشا بالوجد فيك تسعرا
واذا سألتك أن أراك حقيقة * فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلب أنت وعدتني في حبهم * صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا
ان الغرام هو الحياة فمت به * صبا فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلي ومن * بعدي ومن أضحى لاشجاني يرى
عني خذوا وليّ اقتدوا وليّ اسمعوا * وتحدثوا بصبابتي بين الورى
ولقد نعمت مع الحبيب وبيننا * سر أرق من النسيم اذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها * فغدوت مصروفا وكنت مكرما
فدهشت بين جماله وجلاله * وغدا لسان الحال عني مخبرا
فأدر لحاظك في محاسن وجهه * تلق جميع الحسن فيه مصورا
لو ان كل الحسن يكمل صورة * ورآه كان مهللا ومكبرا

ثم في مساء اليوم الثاني تحير فؤاده في أمره نظرا لانفراده طول نهاره
ولم تزل عنه هذه الحيرة الا عند ما خطرت على باله فكرة منيرة وهي انه
تذكر حبيبه جعفرا صديقه الذي كان بيته مقابل بيت رفقة وقال في
نفسه اني لم أر هذا الحبيب منذ مدة ولا بد أن يسر لرؤيتي فقام وسار
اليه قائلا في نفسه ان في السعي اليه مضاعفة لسروري فالسرور
الاول كوني أراه والثاني ان أمر من هذا الطريق وأرى بيت محبوبتي
الذي لي فيه أماني عزيزة عندي ولم يزل في هذه الافكار الى ان صار
بالقرب من بيت رفقة فارتعش واندهش لما رأى في شباكها خيال
شماع خفيف يضيء فوقف برهة بقصد سماع شيء من الكلام الذي كان
حاصلا عندها من بعض الناس ولم يمكنه الاسماع بعض نغمات لم
يفهمها ولما انقضى بعد حصة من الزمن من دهشته سار الى بيت جعفر
فصاح قائلا عند ما رآه أأنت ذا يا فؤادي العزيز الذي لم تمن علي
برؤيتك من مدة وكيف تذكرتني في هذه الليلة ثم لما قرب منه بالنور
رعبه من اصفرار وجهه واحمرار عينيه فقال له متعجبا ما بك يا حبيبي
أأنت مريض فاجابه قائلا لا لم يكن بي شيء ووقع على فرش كانت
هنالك بجانب شباك مطل على قصر محبوبته فقال له جعفر أخبرني
بما عندك هل كنت غائبا عن الاوطان حيث لم أنظرك مدة من
الزمان فقال لا بل كان عندي بعض أشغال كنت مشغولا بها على
مر الاوقات ولم يتم كلامه حتى ازداد ارتعاشه لانه لمح من الشباك
رفقة ومعانيها الذين من ضخامهم يحطم الجسم بأرجل كقوائم
النعام قصار بالنسبة للقد وطوال بالنسبة للنصف الاعلى ورأس
كبير بعيون كعيون الكلب وفم متسع فمت أنف كمنقار الغراب

وبجانبيه أذنان كأذني الفيل ولعمري ان الانسان لا يرى في زمانه مثل تلك الصورة فانه لما كان يقف يرى انه كالمارد ولما كان يجلس يرى انه كالطلل ولذلك ما كان يجلس الا فيما ندر واسمه السيد احمد المارديني وكان ذا اقتدار تام فلما رأى فؤاد هذا الرجل هم قلبه أن يبوح بأسراره الى صديقه جعفر لان من العشاق من يستريح قلبه اذا باح بسره لبعض أصدقائه لكن شفتاه منعتاه الكلام وكان يموج في صدره ويختلج في حنجرته ولا يقدر أن ينطق بكلمة منه ولله در من قال في مثل هذا الحال

لا يكتم السر الا كل ذي ثقة * فذاك عند ذوي الاسرار مكتوم

والسر عندي في بيت له غلق * ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

وكانت مدامعه تتردد في أعينه الناشفة من غدر وخيانة هذه المرأة له فصار يقول في نفسه آه يا ربي أي تذكار مؤلم لي ولم لم ترني هذه المرأة ميتا تحت الشباك الذي فتح لي المرار العديدة ثم بعد ذلك التفت الى جعفر وقال له ان بي يا عزيزي ألما عظيما أرى نفسي في غاية التعب ويلزمني ان اسرع بالذهاب الى بيتي فلم يوقف ذلك الحبيب الفضيل وأحضر له عربة لتوصله الى بيته حيث كان جل قصده أن يقوي قلبه ويسليه فقام معه وما وصلا الى العربة ازداد ألم فؤاد وكان يحس ان قلبه يتقطع وانه يستطرح قطعا مملوءة بالدم من فيه ثم حيا جعفرا تحية الانصراف شاكرا له فيما أجراه معه ولما غاب عن نظره ترك نفسه غريقة في بحار العشق والغرام وصار يتفكر فيما يصنع هل يذهب الى هذه المرأة المخادعة الغشاشة ويهجم عليها ثم يأخذ منها بثاره ثم يقتل وبما ينتج من ذلك عواقب غير حميدة أو يترك

ذلك ويمكن ان يكون هذا الرجل من أقاربها ولكن لاى سبب قالت لى انها ما تكون غائبة عن بيتها فى تلك الليلة ومنعتنى عن الذهاب اليها ان لم يكن بينها وبين هذا الرجل علائق سرية ثم من شدة ما به من الالم صاح قائلا لعنك الله السماء أيتها المرأة كما ألعنك أنا فى هذه الساعة أنت تخادعنى وأهلكت نفسى بالكلية لاجلك ولله در من قال فى مثل هذا الحال

أبدا بلا سبب ولا ذنب * تبدى الصدود ولم أغرم صب
أصبحت بالهجران تقتله * وما اكتفيت بلوعة الحب
لا بت مثل مبيت مهجته * مأوى الهموم ومجمع الكرب
صب يقلبه الهوى فكرا * ويديره جنبا الى جنب

فبينما هو فى هذه الافكار اذ سارت به العربة حتى بعدت مع ان رفقته لم يقفوا على بالها ان فؤادا عرف اذ ذاك قضية أمرها ولم يزل على هذه الحالة الى ان وصل الى بيته فصار يبكى ويئوح كالطفل الصغير والواقع انه لا يوجد انسان على وجه الارض حصل له هذا الخداع ولو مرة واحدة الا ويعلم ما يعقبه من العذاب وبعد ذلك أخذ فؤاد يقول فى نفسه من حرارة الحمى التى أصابته لابد من أن أنسخ آية هذا العشق من قلبى وظن انه يقدر على هذا الامر فصار يتفكر فى تسطير خطاب ويصوره فى عقله ليكتبه لها ثم قال لا أنا أتركها بدون أن أعرفها السبب هذا ما كان من أمره وأما رفقة فانها انتظرته فى الغد فلم يحضر وكذلك فى اليوم الثالث ومن شدة تعجبها فى تركها بدون سبب أخذت دواة وقلما وقرطاسا وكتبت له تستفهم عن صحته وترجوه فى الحضور اليها ولما اطلع عليه لم يجاوبها الا بسطرين

مختصرين

مختصرين قائلا انه فى صحة تامة ولا يمكنه ان يذهب اليها نظرا لبعض
أشغال جسيمة تمنعه عن ذلك وطواه وأرسله اليها فلما صار بين يديها
وفضت ختامه وفهمت ما حواه صرخت صرخة عظيمة ووقعت على
الارض باكية مغشيا عليها فسمعها أختاها فحضرتا اليها فى الحال
ولما وجداها على تلك الحالة رفعتاها على سريرها فلما انتبهت
انفسها بعد برهة تركتها أختها الكبيرة مع وردجنة لتلاحظها
ودخلت بيتها فقالت وردجنة لرفقة مالك فقالت لم يكن بى شئ وقد
زال ما كان عندى من الالم فألحت عليها الالحاح الذى لا مزيد عليه
حتى ناولتها الجواب الذى وردها من فؤاد فبعد ان قرأته قالت
لها ما أجملك يا أختى ان فؤادا يحبك ولا يتركك هكذا كونى متحققة
بحضوره اليك فأجابتها قائلة لا يا أختى لقد عرفت طباعه صحيح انه
يحبنى من صميم القلب لكن هناك شئ أغضبه لان هذه هى أول المرار
التى كتب لى فيها بهذه الصفة فى مدة السنة التى عرفته فيها فقالت لها
وردجنة حينئذ لا يكون عليك الا أن تطلبى منه أن يوضح لك سبب
عدم مجيئه فلا يمكنه أن يبسط لك الجواب بل يحضر بنفسه ليخبرك
به فقبلت رفقة بهذا الرأى السديد وقالت لاختها يا عزيزتى يا أختى
بأى مقدار أنا أحبك وما أحسن رأيك ثم قامت وأحضرت قلما ودواة
وقرطاسا وكتبت تقول

يا فؤادى العزيز أنت تعرف انك أعز شئ عندى فى هذه الدنيا أنت
المرسوم فى قلبى وتقول لى انه لا يمكننى أن أحضر اليك فى هذه الليلة
فلا بد لذلك من سبب وأريد منك أن توضحه لى فى الحال والا عدمت
حبيبتك

ثم طوته وأرسلته اليه ومكثت تنتظر رده وقل صبرها لانه تصور لها
فى ذلك اليوم ان الوقت قد استطال عن العادة هذا ما كان من أمرها
وأما فؤاد فانه عند ما وصل اليه هذا الكتاب فض ختامه وقرأه
واشتد خفقان قلبه وبقى مدهوشا برهة وقد غاب صوابه ثم خرج
رابه لا يدرون أن يشعر فوجد نفسه فى دار محبوبته وفقة ففرحت
الفرح الذى لا مزيد عليه عند ما رأته مقبلا عليها وبيده وردة ولما
قرب منها ألقت نفسها عليه وعانقته بحنو وأخذت الوردة من يده
ووضعتها فى شعورها وسألته من أخذها فلم يضيع هذه الفرصة وقال
كونى متحققة انى لم آخذها من صحبة هذه الازهار وأشار باصبعه
الى الصحبة التى كانت عندها على الشمال التى أحضرها
اللماردى بالامس ربما يصير قبوله عندك وافق المرام فاحمرلون وفقة
خجلا ثم اصفر وجلا اذ لم تكن تظن ان فؤادا ينطق بهذا الاسم ثم
قالت من هذا اللماردى فانى لست متذكرة له فلم يمكن فؤاد اذ ذاك
أن يضبط نفسه فقال كيف لم تتذكرى اسم من كان جالسا هنا
بجانبك منذ يومين أى فى اليوم الذى كنت حاضرة فيه فى عرس من لا
أعلمه وقد منعتنى فيه عن الحضور اليك فاندهشت رفقة من هذا
الكلام لكنها لما وجدته مصمما على كلامه قالت له وقد قل صبرها
يا فؤادى ها أنا أبوح لك بجلية أمرى وكيف تعرفنا باللماردى المذكور
وذلك انه منذ ثلاث سنوات كان خالى قد فقد كافة ما كان يمتلكه
بسبب سفينة كانت ملكه قد غرقت فى أثناء مجيئها من جهة بلاد
الصين فلما بلغ هذا الرجل ما أصابنا من غدر الدهر والزمان اخذ نا لى
تحت ظل حمايته وساعده المساعدة الكبرى حتى صار متجره كأنه لم

يتغير فنظر الفعل هذا الخير لم يمكنا أن نمنعه من الزيارة التي جل قصده
أن تكون مجهولة عند الجميع ومع ذلك فهي كزيارة والد لاولاده ولا
يزورنا الا مرة أو مرتين في كل أسبوع ولما أرسل يخبرنا بزيارته
الاخيرة في تلك الليلة لم يمكني أن أخبرك بالحقيقة لئلا تتكدر فلما
سمع فؤاد هذا الكلام وارى غضبه وقال لها افعلي ما بدا لك فقالت له
ها أنا أخبرتك بحقيقة الامر ولم تزل في كدر ألم تعلم اني أحبك يا فؤاد
فكن صحققا أنه لا يفترق بيننا في هذه الدنيا الا الموت فحينئذ ماذا
تريد مني زيادة عن قلبي ولما لم يلتفت فؤاد اليها انذهشت وضربت
كفا على كف وصاحت قائلة آه يا ربي لم يصدقني ولم تتم كلامها
حتى وقعت والدامع سائلة على خدودها والدماء تنصب من فيها
حتى صدق من قال فيها

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

وأنشدت بلسان الحال قائلة * من غير كره ولا مطل ولا مدد

والله ما حزنت أخت لفقد أخ * حزني عليه ولا أم على ولد

فأسرعت وأتت تجري على عجل * فعند رؤيتها لم أستطع جلدي

وأغمرتني بفضل من عواطفها * فعادت الروح بعد الموت للجسد

فلما رآها فؤاد بهذه الحالة تشفق عليها ورفعها وأجلسها بجانبه وصار
يطيب خاطرها قائلا يا عزيزتي يا رفيقة أرجو لك أن تكوني معي في
الصداقة الخالصة من الآن فصاعدا فانك تعلمين حقيقة حبي لك
وغيرتي عليك من كل شيء على رأي من قال

أغار عليك من نظري ومني * ومنك ومن مكانك والزمان

ولو أني خبأتك في عيوني * الى يوم القيامة ما كفاني

فلما رأت رفقة ذلك من محبوبها وأن حبه لها لم يتبدل ولم يتزلزل صاحت قائلة بفرح ما أحسن قلبك وما أعظم مقدار حبي لك ثم تعانقا وتلاثما وتسامحا وتسامحا ولله در من قال في مثل هذا الحال

ولي فيك بين القرب والبعد شهد * يريبي صدق الجهر في كذب السر
أأحبابنا بنتم وخلفتم الهوى * علالة والشوق منا حشى الحر
هلم الى العهد القديم نجدده * ونشربه ميت الهوى طيب النشر
فنحن قبلناكم على كل حالة * أحباء لا نسلوكم آخر الدهر
ونحن فعلنا ما يليق من الوفا * فلا تفعلوا ما لا يليق من الغدر

فقد شاب فؤادي قبل أن يقضي له * ثلاث مع العشرين من مدة العمر

ولم يرجع فؤاد الى منزله الا عند ما أصبح الصباح وطلعت الشمس على رؤس الروابي والبطاح هذا ما كان من أمرهما وأما تاج البها فكر اهتها الفؤاد وغيرتها منه باقية على ما هي عليه وهي لم تزل تبحث عن الطريقة التي بواسطتها تمنع فؤادا عن رؤية أختها ولكنها الى الآن لم يسعفها زمانها بايجادها

ثم بينما فؤاد جالس ذات يوم في بيته اذ ضاق صدره ولم يعرف السبب فتخيل أن صورة محبوبته رفقة نصب عينه وهي لابسة ملابس النوم وقوامها وقدها القمان يتمايل تحت الثياب ووجهها الحسن يضيء في شعاع شمس الخريف فمن عظم تلك التخيلات قام مسرعا ووثب على ظهر جواده وسار اليها فلما وصل بادر اليه الخادم وأخبره ان سيدته الصغيرة مريضة وترجوه أن يتابلها في قصرها فتأمل فؤاد في حالة البيت فوجد أثاثه وفرشه مبعثرة ولما دخل عند رفقة وجدها

لم تزل فى ملابس الصباح التى هى ملابس النوم مشتغلة بترتيب بعض أوراق فلما رأته أسرعت اليه وعانقته وقالت له يا عزيزى ينبغى لى أن أسافر خذ واقرأ وناولته خطابا من خالها به يطلب حضورها الى الاسكندرية بدون تأخير فقال لها فؤاد أنا أذهب معك لانى لا يمكننى المعيشة بعيدا عنك فقالت ألم تعلم انه ليس لى مأوى هنالك الا عند أولاد العم ولا أقيم بالاسكندرية الا أياما قلائل فقال لها وما العمل فعانقته قائلة العمل أن تكون محققا أن محبتى لك لا تزول على الدوام فهى باقية على مدى الايام وأطلب من ربى أن يميتنى قبل اليوم الذى أحب غيرك فيه وهكذا كانت دائما تنتهى مغازلاتهما وأما وقت فراقهما فلا تسأل عما جرى فيه وكان فؤاد اذ ذاك متخيلا أن افتراقهما أبدى ولو أن رفقته لم تكن تظن ان غيابها يطول زيادة عن أسبوع ثم لما رآها داخل العربة السائرة بها الى الاسكندرية أحس بتقطع قلبه وتفتت كبده وكان يريد أن يلقى نفسه عليها ليمنعها عن السفر لكنه خجل من فعل مثل هذا الامر وأتبعها نظره الى أن غابت عنه ثم عاد الى بيتها وصعد الى قصرها فزاد به الكدر والقلق والضجر لما رأى الاشياء حوله مبعثرة ونسى نفسه فى هذه الحالة الى المساء ولما انتبه من دهشته قام ذاهبا الى بيته واختلى مع ما به من الالم كما قيل

غزال اللوى بالسفح سار فريقه * فان كان لى فيه شفا فريقه
اذا ما ثنى فهو فى الحسن واحد * وقد زانه فى وجنتيه شقيقه
ففى خده النعمان والثغر بارق * ووادى الغضى قلبى ودمعى عقيقه
أقام يكشف الساق منه قيامتى * وسقمى بخصر حاز رقى رقيقه

على خده خال من المسك عمه * وشيق قوام والفؤاد رشيقه
سبى مهجتى ساج من الطرف فاتر * أسير به قلبى ودمعى طليقه
جفانى وشفى حاسدى بعاده * ومن يشتفى بالبين ربى يذيقه
وفارقته رغما وما حال مغرم * يفارقه بعد الوداد رفيقه
ومن عجب أنى غريق مدامعى * وشكواى من دمع كوانى حريقه
فيارب ان عذبت صبا بفرقة * فأفرغ عليه الصبر حتى يطيقه

وبعد ذلك لم يمض أسبوع الا وقد ورد منها خطابان لانه كان يرد له أخبارها مرتين فى الاسبوع فصار يستغرق فى بحار قراءة تلك الاجوبة وكانت لا تسعه عن وضع وردة داخل الظروف تارة وحلقة من شعرها أخرى فكانت هذه الاشياء تدهش فؤادا من الفرح لكن كانت تزيد أفكاره فى غيبة محبوبته ولقد صدق فيه قول من قال

أيا راحلا لم أدر كيف رحيله * وقد راعنى من خطبه المتسرع
بلا طفنى بالقول عند وداعه * لتسكن عنى لوعتى وتفجعى
ولما قضى التوديع فينا قضاءه * رجعت ولكن لا تسل كيف مرجعى
جزى الله ذاك الوجه خير جزائه * وحيته عنى الشمس فى كل مطلع
ويارب جد كلما هبت الصبا * سلامى على ذاك الحبيب المودع
قفوا بعدنا تلتوا مكان حديثنا * له أرج كالعنبر المتضوع
ألا حبذا نسم أنسكم وحياتكم * وما كان عندى وذكم بضيع
لعمرى الله قلبى هكذا هو لم يزل * يحن ويصبو لا يفيق ولا يعى

وكان يكرر قراءة تلك الاجوبة نحو العشرين مرة كل يوم وهو فى بيته ويكلمها بالقبل ولم يزل على هذه الحالة مدة خمسة عشر يوما وكانت

عنده كخمسة عشر قرناوضاق صدره وقل صبره وبينماهو فى هذه الحالة اذورد له البشير مبشرا بقدومها فشد على جواده وركب وخرج للاقائها حتى صار بعيدا عن البلد بثلاثة فراسخ فبينماهو يشتهى أن يكون له أجنحة ليسبق ذلك الحصان الذى كان يشكو كسله ويلعن بطاه اذلمح رفقة واختها مقبلات عليه فدنا منهن وسلم عليهن ورجع معهن ولم تمض ساعتان حتى اختلى بمعشوقته فكان يتأمل فيها كالمجنون ويشحن يديها بالقبل وصار كل منهما ينطق بكلام كانه يتقطع بين شفتيهما المحترقة بنار القبل ومن المعلوم ان فى الدنيا ساعات لايمكن الانسان أن يصف لذتها وتلك الساعة كانت منها حتى ان فؤاد ورفقة لم يعلما فى أى وقت انتبها لنفسيهما حصل لهما ماجرى كما قال الشاعر

عانقته فسكرت من طيب الشذا * فضممارطبا بالنسيم قدا غتذى
نشوان ماشرب المدام وانما * أضحى بخمر رضابه متنبذا
أضحى الجمال بأسره فى أسره * فلاجل ذا لعلى القلوب استحوذا
وأتى العذول يلومنى من بعدما * أخذ الغرام على فيه ماخذا
لاأنتهى لاأنثنى لاأرعوى * عن حبه فليفعل فيه من هذا
مهما اكتحلت بخده وعذاره * لم ألق الاعسجدا وزمردا
والله ماخطر السلو بخاطرى * مادمت فى قيد الحياة ولاأذا
ان عشت عشت على هواه وان أمت * وبحبه وصبابته يا حبذا
انى ليعجبنى تلافى الهوى * ويلذلى ماقد لقيت من الاذى
وبعد ذلك قالت رفقة لمحبوبها ويدها مطوقة على عنقه لقد رأيت العذاب فى مدة هذا الغياب ولاأظن ان ربى يتاصصنى على خطاياى

بعقاب أشد من هذا ومع ذلك فانك استعملت معي قساوة القلب
لانك لم تكتب لي الامرين مختصرتين وكنت طول الطريق أتفكر
فيك وبينما كنت أدبر حيلة لاجل أن أرالك محال وصولي اذ وجدتك
قد اعيى كلف الخيال ثم قالت آه ما أحسن بختي فكان فؤاد
صاغيا اليها فرحا بهذا الكلام الذي كان خارجا من بين شفتي
محبوبته كالامواج المتلاطمة وصار هو ايضا يستحسنها ويخبرها
بما عنده من الشوق اليها وكيف كان يجد المذة مستطيلة عليه
وأراها جواباتها التي كان حاملها على قلبه وبعد ذلك قام ليتركها
حتى تستريح مما قاسته من التعب في السفر فقالت له بشغف ماذا
تريد أن تفعل هل عزمت على الذهاب هكذا عاجلا فقال نعم يا حبيبتي
لانه يلزمك أن تستريحي من تعب الطريق فأستودعك الله الآن
فقالت حينئذ سأراك في الغد ثم تلاشما وانصرف ولما وصل الى بيته
لم ينم طول الليل من شدة الفرح وقام من الفجر واقفا على أقدامه
منشدا بأعلى صوته بعض القصائد التي كانت رفيقة تحبها وصار بعد
ذلك يتردد اليها كل يوم ونظر الحبها الذي كان مانعا لها عن كافة
العلائق وكونها الدرون غيره صار حسنها مثل وجده كل يوم في ازدياد
فكانت على الدوام اما فرحانة واما شفوقة لكنها متهيجة جميع
اوقاتها في حركاتها وسكناتها التي كانت سريعة التغير ولم يعرف
فؤاد اذ ذاك السهل موجودا سواه غيرها على وجه الارض لان جميع
حواسه وأفكاره كانت متعلقة بها وليس قصده بالحياة في هذه الدنيا
الا هي لكن كان يتأسف من أن راحة باله لا تدوم وسوف تطرأ عليها
عوارض الزمان وتقلقها الا ان رفيقة لم تكن الا امرأة قد تمدت اخلاقها وكل

امرأة

امرأة متداخلة راغبة فى معرفة كل شئ وهذه الخصلة قد أمالت كثيرا
من النساء زيادة عن المأمول وان المرأة التى يظن فيها الخيانة لا تكون
خيانتها فى الاغلب الا من كثرة المداخلة وكثرة الرغبة لاطلاعها على
كل الاشياء وزيادة على ذلك كانت رفقة سريعة الاستحالات أقل
شئ يغيرها من حال الى حال وكان فؤاد نظر الهذه الحالة يشكو طباعها
المرارا عديدة * ولترجع لما كنا فيه فنقول ان فؤادا كان تعود بعد ذلك
على الذهاب اليها فى الليل والاقامة عندها فى أغلب الاحيان الى
الصباح ولم يزل على ذلك الى أن خرج ذات يوم من بيته قبل ميعاده
على خلاف العادة وذهب الى دار معشوقته فلما وصل الى باب
الجنينة سمع قوما يتكلمون وميز فيما بينهم صوت رفقة وضحكها التى
كانت كرنين الفضة وبعد ذلك ميز صوت أختها لكن الاصوات
لم تكن جميعها خارجة من جهة واحدة فتحقق عنده ان رفقة
لم تكن بمفردها فأراد الوقوف على حقيقة من كان معها وأسرع
الى الباب وفتحه سرا وسار كانه لص الى الجهة التى سمع منها صوت
رفقة ليخجلها ولم يزل ماشيا على أطراف أصابعه منتبها للاياس على
ورقة شجر ناشفة فبهذا كشف أمره الى ان وصل الى شوشة خيزران
ونظر المحل الخارج منه ذلك الصوت بدون أن يراه أحد ولما لم يسمع
الا بعض نغمات غير مفهومة فرق بعض الخيزران فوجد محبوبته
جالسة وبجانبها شاب مشتغل بتنظيم محبة أزهار فانظر كيف كان
حال فؤاد فى تلك الساعة وكيف لم يظهر نفسه لهما بغتة فلو سئل لم يكن
يعرف ردا لجواب عن هذه المسئلة فتفككت جميع أعضائه وفقدت
قواه وبقى مدهوشا برهة ثم قال فى نفسه لقد عرفت ما أعتك

به فى هذه الليلة وقام وخرج من جنينة رفقة بالصفة التى دخل بها وسار ولم يدر الى أين يذهب وكان يتكلم كالمجنون فى أثناء سيره الى أن وصل الى احدى المتنزهات العمومية ولم يشعر وبينما هو فى هذه الحالة وأعينه شواخص للعربات المارة اذ وجد عربة داخلها رفقة وأختها وردجنة والشاب الذى كان رآه عندهن فى الجنينة وكانت رفقة ماسكة بيدها صحبة الازهار التى كان نظمها ذلك الشاب لها ولابد أن يكون أيضا قد قطف وجمع أزهارها فمن شدة الالم الذى تجدد عنده أراد أن يهجم عليهم لكنه خشى العواقب فوقف برهة غائب الحواس ثم رجع الى بيته ولا يعلم الا الله بما كان يدبره فى ضميره من المكر والحيل لأخذ ثاره وشفاء غليله وحلف أنه ينسى هذه الخائنة التى كانت تفشه بالقبل الخادعة وكان يريد أن يبعد ذلك الشاب الذى استولى على محله وناب عنه مع كثيرين غيره ولم يزل على هذه الحالة الى المساء ثم قام وذهب اليها بقصد قطع علائق العشق واهانتها وتفهيمها بورى فيه أنه لم يعد ابدا الى غفلته بقبوله منها القبل المصطنعة وعندما وصل استقبلته كالعادة فأراد أن يخجلها بالتفاتاته اليها أو بكلامه فلم يتحصل على ذلك وأما عناقها وقبلها فانهم التغير حالته وصار يمنع نفسه عنها ببرود ويعرض عنها حتى يفهمها كدره وغضبه ومع ذلك فانها لم تفهم فلما بالحال زهرية من جنينة بالزرنشان (أى بالمينة) موضوعة على المائدة فسألها قائلا انى لم أر هذه الزهرية من قبل فمن الذى أرسلها اليك فقالت أرسلها الى ابن مصطفى الرواى فعند ذلك لم يستطع فؤاد السكوت وقال معلوم انه أرسلها لصيانة صحبة الازهار التى سواها لك فى هذا اليوم وكنت

تستنشق منها الروائح الذكية منذ كنت معه في المتنزه ثم احتبست في
الكلام ولم يستطع أن يصفي الكلام معها وصاح قائلا أنت لا توافقك الا
تلك اللعبة من ابليس المزخرفة التي تشبه الصنم المكلل بالابس
الفاخرة فقالت رفقة يا فؤاد فقطع عليها الكلام وقال ان الحق معك
لان الاوفق ان الانسان يظهر نفسه مع شاب لابس أفخر الملابس وان
كان ردي الاخلاق بدلا عن كونه يتنزه مع رجل لم يلبس الا كباقي الناس
وهذا معلوم بالبداهة فعندما سمعت رفقة هذا الكلام صار الماء في
وجهها ظلام وصارت تبكي حتى انصب الدم من فمها فهذا البكاء
هو الشيء الوحيد الذي تعتمد عليه النساء ولا يمكنهن الاعتماد على غيره
لبراءة ساحتهن وأما فؤاد فانه أعرض عن بكائها لكن لما رأى على
اصابعه أثر دموعها السائلة على خدها كاللؤلؤ المنثور لم يمكنه أن
يضبط نفسه وزال عنه الكدر وجميع ما كان بقلبه من الغضب
والضجر ونسي ما كان عنده من الالم ولم يرقد امه الا المرأة التي كان
يحبها ولم يزل محبها محرقا لفؤاده فيا مسكين يا فؤاد (نحن نتأسف عليه
لانا معاشر المؤرخين نرى ما هو حاصل في قلوب البشر) فيا مسكين
يا فؤاد لقد أخذت في ابتداء عذابك والى الآن أنت لم ترق قلبك الا
وردة الحياة ولم تعلم ان الغول سوف يقطعها قريبا وأما رفقة فانها في
أثناء بكائها دبرت حيلة تظهر بها الفؤاد يقبلها منها بفرح فقالت له ان
بين مصطفى الرواي أبي هذا الشاب وبين خالها عبد الحميد قضية مهمة
وان الزهرية التي رأيتها لم تكن الا هدية مجانا فانشرح فؤاد سرورا
وقتيا من كلامها وقام وانصرف وماذا لنا الا أن نبين ان الشك قد عرض
على قلبه وينبغي أن نقول ان أفكاره كانت تغير معنى كلامها عنده

فالعذاب الذى قاساه تلك الليلة لا يقدر وأحاطت به جميع النيران وصار يتاسف على حاله ولله در من قال فى مثل هذا الحال

يا ساقيا مهجتى كؤس هوى * وسائقا مقلتى الى السهد
ومودعى صبوة أوائلها * يقصر عنها أواخر العدد
عندى من الوجد ما به أجلى * يفنى ولم أبده الى أحد
قد نضحت مهجتى هوى فاذا * قالت قد لا فراق قال قدى
وجدت منك القلى بلا طلب * فكم طلبت اللقا فلم أجد
أول عهدى بالحب فيك غدا * آخر عهدى بالصبر والجلد
يا ناسيا عهدى القديم وما * غير هواه عندى فى خلدى
أين الليالى وأنت عندى قد * حوالنظر فى وأنت طوع يدى
حيث أنادى وأنت مبتسم * يا عين رودى ويا شفاء ردى
واليوم لى أدمع تسرب فى الخدك ورق بكف منتقد

ثم من شدة غرامه بها صار يراجع نفسه ويقول انها صغيرة لا تعرف الخيانة ولا يمكن ان تكون غشتنى فالمسكين نظرا لعشقه لها لم يكن فى فكرته ان المرأة وان كانت صغيرة السن يمكنها ان تخفى أفكارها وانحو اليها على الرجل وان كان بينها وبينه حب عظيم لكن يلزمنا أيضا أن نقول ان رفقة لم تكن عشقوقة الى الآن وهذا الذى كان يدارى غضب فؤاد عليها ثم رفقة كانت تظن بمجرد هذه الكلمة انها الاتلام على زيارة ابن مصطفى لها وعلى خروجها سويه على رؤس الاشهاد للمهتزه مع انها والحالة هذه كانت تاركة نفسها على هواها الطبيعى الذى يرجى أعظم مقدرة فى البحث عن كل ما يجهله ولم يزل فؤاد فى هذه الافكار الى اليوم الثانى ثم قام وذهب اليها أيضا فى اثناء النهار على

خلاف عادته فوجد ابن مصطفى هنالك لكنه كان جالسا بجانب أختيها
فظن ان رفقة نظرا لما حصل فى اليوم الماضى قد اصطنعت هذه
الحيلة لتظهر أنها لا تريده فظهرت على فؤاد حالة الغضب وعادت اليه
الافكار التى كانت زالت عنه ثم هدأت نفسه وأراد أن يستفهم من
رفقة بصراحة عما تقدم ذكره لكن لم تزل حالة الكدر ظاهرة عليه
وما جاوب الا بكلمتين مختصرتين عن كل ما كان يسئل عنه من
الحاضرين فقرصت تاج البها بالاسف الحاصل لاختها باسباب زعل
فؤاد وصارت تناكفه وتثقل عليه المسائل الباردة الى ان قام ابن
مصطفى وسياهم تحية الانصراف وقبل أيادى الاخوات الثلاث
لكنه عند تقبيل يد رفقة تراءى لفؤاد ان هذه القبلة كانت زائدة
الاعتناء فزاد غضبه ثم لما خرجت تاج البها وورد جنة مع ضمنهن
ليوصلاه قال فؤاد لرفقة لم تخبرينى بمجىء هذا الرجل اليكن فى أثناء
النهار فاجابته قائلة انه يتردد علينا منذ أيام كثيرة فقال وكيف لم أنظره
فى ليالى السمر فقالت ربما تكون قد ظننته غير غلطا وكان هذا
الكلام منه جملة شديدة حتى ان رفقة تكدرت منه كدرا عظيما لانها
كما تقدم كانت تظن انها اخبرته بقدومه فأما فؤاد فانه لم يسكت عنها الا بعد
حضور أختيها اللتين لم يطيلا الجلوس معهما بل قامتا وذهبت كل
منهما الى بيتها وتركتا فؤادا مع رفقة فبعد ما مكثا برهة ساكتين قالت
رفقة ما أكثر تحمل قلبك من هذا الرجل فلم يمكنه أن يرد جوابا ولما
رأت منه ذلك خرجت فمه بصوت كما قيل فى المثل بعد ان كان الحق عليها
صار لها فلما راءته ما كان ظنه بها سوأ فى اليوم الماضى صار يبحث عن
عذر يبديه لها ليسكتها لكن قد زال من قلبه الشك وظن السوء

وبجد رفقة لم تكن أعلى واحسن وأحب له من هذا اليوم وبدل
التوبيخات التي كان يريد ابداءها لها وجد نفسه ملزما بالامتثال لها
ومسايرتها فلما رأت قوة سلطانها عليه بهذا المقدار لم تقصر في أن
تقول له جميع ما يريد لها تارة بشفقة وتارة بتيه ودلال فهذه هي حالة
النساء أي انه اذا كان الرجل المحبوب ذا عجب وتيه ها كما على نفسه لم
يبق من محبوبته قبول ولا التفات لاحد سواه واذا كان بضد ذلك أي
اذا كان متواضعا لها منقادا لشهواتها يموت بالكمد ولا يدري به
أحد فانتبهت رفقة بجذب قلب فؤاد اليها زيادة عن الاول وعندما كان
يرد لها اجوبة في بعض الاحيان كانت تقول لفؤاد انها أوراق مختصة
باشغال ولا تطلعه عليها وهو مع ذلك لا يلح عليها لقراءتها لانه كان يقول
في نفسه ربما قراءتها لا تسرني فكانت معيشة رفقة معه بهذه الصورة
لكنها بعد ذلك رجعت الى فؤاد وصارت احسن من اول ولم تعد تسأل
عما كان يقال في حقها من القيل والقال في اتحادها مع فؤاد فكانت
تقول لا أبالي بالناس وهل لاحد علي حكم وسلاطة مع اني راغبة في
تقديم أشياء كثيرة لك زيادة عن شرفي الذين يقولون انك ضيعتيه فدعهم
يقولوا ما يشاؤن وليقطعوا جسمي في عرضي ويمزقوه بألسنتهم فلا أجري
الا رأي من قال (اذا كنت تسقي الشهد من نحبه * فدع كل ذي عذل
يبيع فتاته) وليقولوا في حق كل ما أرادوا في اثناء مسامراتهم اذا
كان ذلك يسليهم ويشفي غليلهم وكانت تقول هذا الكلام بظرف تام
واقتضى الامر مع فؤاد الى كونه يفعل معها على ما كانا ينظرانه من
الغيظ الظاهر على وجهها وفهمها في المنتزهات ولم يزالا على هذه
الحالة الى ان جاء يوم من شهر كانون الاول كانت السماء فيه مستترة

بالغمام فالتزم فؤاد فى هذا اليوم ان يبادر بالسفر الى بلدة قريبة لاشغال تخصه فصمم على الذهاب الى رفقة ليقبلها قبلة الوداع قبل سفره لان تلك الاشغال ربما عجزته عنها أسابيع كثيرة وليذهب اليها وجدها كالعادة احسن واظرف مما كانت فقال لها يا رفقة أنا مسافر فأجابته بتعجب أأنت تسافر لملك تقصد بذلك المزاح فقال لها يا داد محتضنة ظهرها ان لى بعض أشغال تلزمنى ان أسافر لبلدة قريبة لقضائها وقد أتيت لاقبلك قبل سفرى تأكيدا لحبى لك ولا بد ان يكون بيننا اسابيع مخصوص ليأتينى بأخبارك يوما فيوما ثم قبلها القبلة الاخيرة وعاد الى بيته فوجد جميع لوازم سفره قد تجهزت فتوكل على الاله المعبود وسافر ولما وصل الى المحل المقصود صار يرد له من معشوقته الخطاب المستطيل كل يوم فى الاسبوع عين الاولين وكان يستغرق فى بحر مطالعته مسافة زمن وبعد ذلك صارت تلك الاجوبة ترد له مختصرة قليلا ثم صارت نادرة فتعجب فؤاد من ذلك وسأل عن السبب فقال له الساعى لم يمكنى يا سيدى ان أرى سيدتى فى هذا اليوم وقيل لى انها متوعكة المزاج ولا تقابل أحدا فاشتغل بال فؤاد من هذا الخبر وعجل بقضاء اشغاله وتوجه الى مصر وقصد بيت رفقة وطرق بابها لكنه أخذ العجب من عدم سرعة فتحه له كالعادة فانه لم يفتح له فى ذلك اليوم الا بعد انتظار كثير فسأل من خادمتها عن أسباب ذلك فاعتذرت تلك البنية بقولها انها لم تسمعه فزاد تعجبه من كونه لم يطرق الباب الا مرة واحدة فكيف فتحت له اذا كانت لم تسمعه طرق الباب وقال لها ذلك فتلجلجت المسكينة وقالت له وهى تبكى ان سيدتها امرتها أن لا تفتح الباب ابدا ان يخرج من عندها فلان أحد تجارنا من باب

المدينة فاندهش فؤاد من هذا الكلام وصار الضياء في وجهه مثل الظلام حتى كاد ان يقع على الارض لولا انه استند على الباب مدة حتى أفاق والواقع انه كان قوي القلب واسع الصدر لان هذا الامر لو كان مع غيره كان يفعل ما يفعل واما هو فقد أخفى في قلبه هذا الالم ورجع في الحال الى داره وكتب لرفقة يقول

عندما بلغني توعك مزاجك حضرت في الحال لكن أظن ان جارك فلانا أمكنه أن يعالجك وبواسطته تشفين ويزول عنك العناء

من كان لكم محب

فؤاد

ثم طواه وأرسله اليها ومن شدة تعبه من السفر وكدره من رفقة وقع في الحال وصار يهذي وما حتى بلغ درجة خطر لم تزل عنه الا بعد خمسة عشر يوما مع المعالجات الكبرى هذا ما كان من أمره وأما ما كان من رفقة فانها عندما وصل اليها كتاب فؤاد اندهشت وعرفت في الحال ان أفعالها غير حسنة معه وأنها حينئذ لم تقبل جارها في دارها نظرا لاشغال بل عدم شهامتها أداها الى ذلك الاتحاد والواقع ان ذلك الجار كان ذا مال كثير أعزب عديم الذرية لكنه اسوء بخته لم يكن شابا ولا بديعا والحالة هذه خمير بطباع النساء فابتدأ طبعها بكونه يدعو رفقة في الجمعيات التي كانت ترى تقسمها فيها كالملكة حيث انها كانت تقدم كانت صغيرة وجميلة وتحب الملاهي ثم صار يرغبها شيأ فشيأ فاعطاها اولا خاتما من الجوهر ثم اثنين ثم أكثر فكان ذلك غلا على اختها الكبرى غيظا لغيرتها منها لكن ورد جنة أختها الوسطى كانت مسرورة بسبب ان رفقة كانت تعطيها كثيرا من تلك الجوهرات ومع هذه الحالة لم

يهدم ما كانت رفقه أضمرت عليه من ابقاء فؤاد حبيبا لقلبها وجارها
لغير ذلك الا جهل البنت الخادمة العربية باسرار الامور وغفلتها عنها
وصارت رفقة تتنازل شيأ فشيأ من سلم العفة والفضيلة فكانت تحب
فؤادا ولكنها كانت أكثر حبا للتسالى حيث كانت تميزها عنه مع ان
فؤادا لو طلب منها ان ترفضها لفعلت لكن من حسن طباعه وزيادة
أدبه لم يتحكم عليها فى ذلك فصارت بعد وصول كتابه اليها تبحث على
طريقة تمالبراءة مساحتها عنده فكتبت له اولا وثانيا ولم يرد لها جوابا
فكتبت خطابا ثالثا واعطته لخادمتها التى كانت سبب المحصل من
جهلها وغفلتها وأوصتها ان تأتى لها بجوابه فتوجهت الخادمة
بالخطاب لكن لم يستلمه منها الا بحضور حبيب فؤاد لانه كان ملازما له
فى الحالة التى كان فيها وكان تحقق سبب رفقة لفؤاد تارة من مثل هذا
الخطاب وتارة من الكلام الذى كان يتلفظ به فؤاد فى أوقات اشتداد
الحمى عليه وبعد ما قرأه كتب عليه هذه الكلمات فؤاد سيملك سنك
ومن أجلك ثم طواه واعاده للخادمة فذهبت الى سيدتها وناولتها اياه
فعند ما قرأت رفقة هذه الكلمات تلفت وأسرعت بالذهاب الى
محبوبها ودخلت عليه وجلست بجانب فراشه ولم تتركه الا بعد خمسة
عشر يوما لما تحقق لها زوال الخطر عنه لكنها فى اثناء تلك المدة سمعت
منه التوبيخات التى كان يهذى بها اليها فى أوقات الحمى فكاد كبدها
يتفتت عند ما كانت تتأمل فى تلك التوبيخات الحقيقية المبنية على
أساس متين ثم تنتبه لنفسها فتجد انها ملزمة ان تعترف له بجميع
خطاياها حيث انه كان بذل نفسه بتمامها اليها مع انها كانت قد
صرفت النظر عن ذلك حبا فى التسالى والمجوهرات وخرجت عن

الطريق المستقيمة فصارت تهدد نفسها بانها لا تعيش الا لاجله لكن من المعلوم انها والحالة هذه مع وجودها عند فراش فؤاد كانت تظن انها تبقى بعده هذا ما كان من أمرها وأما ما كان من فؤاد فانه عند ما أخذ في النقاهة ومعرفة من كان حوله من الناس لانه كان لا يهي أحدا ممن كان يعوده حال مرضه كان أول وجه نظر اليه وجه رفقة فضم رأسها الى صدره وكالها بالعناق والقبل وصارت رفقة تقبله بغرام زائد واقد صدق في مثل هذا الحال

ضممته لعناقي فاثنى خجلا * وكالمت وجنتاه الدر بالعرق

وقال لي برموز من لواحظه * ان العناق حرام قلت في عنقي

فهكذا طريقة العشاق اذا دنوا خافوا من الفراق وان نأوا حنوا الى التلاقي أو ضحكوا فالدمع في الآماق فاعجب لمن ذاشيء من برد ثم قالت له من شدة فرحها هل سامحتني فلم يجاوبها الا بتجديد القبل ولما رأته تلك البنية المعادلة لامناحوا قد نسي ما مضى أظهرت زيادة حبها ووداده ها ولم تمض الأيام قلائل حتى شفي فؤاد وعوفي وقام وعادت رفقة الى بيتها بفرح تام ومن كان يراهما بعد شفائه بشهر واحد لا يظن ولا يصدق انه وقع بينهما أدنى نزاع لكن رفقة كما سلف كان لها مراسلات كثيرة ولم يحصل الاطلاع من فؤاد على الاطلاع عليها حيث كانت قالت له انها مشغولة بهمها ثم بعد شهرين من شفائه بينما هو ذات ليلة عند رفقة كالعادة اذ تركته بمفرده برهة طويلة وفي اثناء ذلك التفت الى طاولة قريبة منه فوجد عليها اجلة أوراق فاخذ يعبث بها ويقلب فيها فحصلت منه التفاتة الى احداها فوجد فيها اسم رفقة فلم يمكنه اذ ذاك ان يمنع نفسه عن قراءتها

ليعلم

ليعلم مافيها ولما تاملها وقرأها وجدها من الماردى وبها بياعاتها
على خلقه وعاداته كانت قد اتفقت معه عليه بخضر ولم يجدها فلشدة
غيظ فؤاد فى تلك الساعة صار يقلب جميع الاوراق التى كانت
موجودة ولم يعلم ما حصل له فى تلك الساعة الاخالق البرايا حيث ان
اغلب تلك الاوراق كانت من ناس ليس له معاملة معهم فقط بل عند
اغلب أهل البلد وجميعها اعتاب تارة عن خيانة وتارة عن كذب فلم يجد
عنده قوة لتتميم قراءتها لانه تشتت فى الحال ستر الهيكل الذى كان تصور
فى قلبه لرفقة لانها كانت عنده بصفة احد آلهة اليونان وصارت الآن
فى درجة قهرمانة دنية فما اصعب هذا الامر لان فؤادا كان يحب
رفقة هبة من صميم الفؤاد ويشق عليه فسخ هذا العشق الذى كانت
حياته فيه ولا يسهل عليه اشتراك احد معه فى حبها فاندهش مما طالعه
فى تلك الاوراق وقرأه وضعفت جميع قواه وبيناهو فى هذه الحالة
اذ دخلت عليه فوجدته كما ذكرنا فى حالة التلف فألقت نفسها عليه
وضمته الى صدرها وسألته عما به فبمجرد الالتفاتة منها الى تلك الاوراق
عرفت انه قد درس على جميع أمورها فاختبلت وتحيرت فى أمرها ثم
وقعت تحت رجليه وحلفت باعظم آلهتها انها لم تحب فى عمرها أحدا
غيره (وهذا كان صحيحا) وانها لم تترك هذه الاوراق فى تلك الجهة الا
ليطلع عليها ويتحقق عنده صداقتها وانها لم تتغير وأما فؤاد فانه كان
معتقدا فى تلك الساعة ضد ذلك وكان يحس بألم عظيم فى قلبه لكنه
لم يرد ان يشاركه فى هذا الالم من كانت أعز الناس عنده فسكت ولم
يجاوبها عما كانت تفهمه اياه من خصوص أصول تلك الاوراق ولم
يزل مستمرا على هذه الحالة مدة ولما انتبه لنفسه سألها بغيرة شديدة

عن أسباب تركها له وغيابها عنه فاجابته ان أختها الكبرى نادتها
وأخبرتها ان خالها يرغب ان يزوجها برجل تاجر أرمني ذي اقتدار
تام فلم يظهر لها فؤاد أدنى تغير ولما انتهت من كلامها أجابها بهذه
الكلمة الوحيدة (وبعد ذلك) فتعجبت رفقة من صفة تكلم فؤاد
وسكتت برهة بدون ان تبدي كلمة ما ثم قالت وبعد ذلك أسافر فقال
لها الى أين فقالت الى الخاطب الراغب في الى بلاد سوريا فاجابها ببرود
قائلا اذهبي اليه وخيرما تفعلين فانبعث عند ذلك الدم من فيها وصارت
تنطق بكلام كثير غير مفهوم عديم الانتظام ثم وقفت بين يديه وقطعت
النفس ولما أفاقت من غشيتها قالت له بصوت منقطع خفت انت
تقول انك تحبني وتريد الآن ان تتركني خلافك ولم لا تتزوجني فسكت
لكن هذه المادة كانت هتفت على فكره مرارا ولم يتفوه بها لكنه بعد
حصول النزاع الثاني بينهما كانت الريبة قد تمكنت من قلبه وقدر
الله ان رفقة طلبت منه ان يكون لها بعلا في الوقت الذي تحقق فيه
عدم ثباتها فلما سمع منها هذا الكلام لم يعاتبها بل أجابها بالتفاتة
صيرتها في حيرة واندهاش تام وقام واقفا على أقدامه وأحضر لها كافة
الاوراق التي كانت على الطاولة وقال لها اختاري من هو أعظم
اقتدارا من هؤلاء وانصرف لكن الغم غلب عليه ولما كان من
المعلوم ان الليل محل صفاء البال وسداد الرأي اختلى فؤاد بنفسه
وتأسف على كلامه لرفقة ولم ينم طول ليله بل كان يتردد عقله وغرامه
المتخاصمان في النصيحة فالعشق يقول له انها اللؤلؤة فريدة وجوهرة
ثمينة وتحبك فتحفظ عليها غاية التحفظ والعقل كان يقول له انها بنت
غندورة لا قلب لها وانها ربما تحبك ولكنها تميز التسالي والغندرة

عنك ولا قلب لها فاجتنبها ولم يزل فؤاد على التردد في هذه الافكار الى
ان اطاع راى العقل ولو تألم غاية الالم وكتب لها يقول
ياعزيزتي أما طيبة قلبك فهي كمسنك وجمالك وكفى في ذلك ان رجلا
ذليلا يأتي اليك لتساعديه على همه وكربه (وذلك ثابت من خمسة عشر
خطابا وزيادة) وحيث بان لك خاطب فاسمعيه واما أنا فكوني دائما الهة
قلبي التي كنت رأيتها في المنام واليوم لم يتقدمني الا الولولة بها لاهيئتها
ولا شكلها فاستودعك الله ربي واسأله تعالى ان تكوني سعيدة
البخت والحظ زيادة عن عاش وقضى حياته فيك ولاجلك

فؤاد

ثم طوى الجواب وأرسله اليها فلما قرأته لم تصغ لمشورة احد غيرها
وجهزت لوازم سفرها فخالها الذي كان عارفا باتحادها مع فؤاد ومؤملا
ان يراهما يوما متزوجين بعضهما لم يعرض عليها الزواج الا التحريض
فؤاد على الترغيب في طلبها ولما وجد ظنه لم يصادف هذا لم يتكلم ولم
يتعرض لرفقة فسافرت في الحال مع أختها ورد جنة وبعد وصولهما
الى المحل المعلوم يومين تعرفا بخاطب رفقة وحيث انه يجب على
المؤرخ ان يكون خالي الغرض نقول ان هذا الخاطب خلق لا يحب
فان صورته كانت بخلاف الصور المشرقية فشعر رأسه وذقنه
وحاجبيه كان احمر اللون مائلا الى سمرة أي انه ليس خالص الحمرة
وتحت حاجبيه الغليظين الثقيلين عينان خضراء اللون بادهان
دامعات وذلك ناشئ من شغل الليالي الناشئ عن حرص هذا الرجل
وله انف معقوف كمنقار العقاب ويلي ذلك فم صغير بشفاه بيضاء
عفراء وهي علامة الخبث وذقن ناتئة وهي علامة العناد وتصلب

الرأى وبلية غير منتظمة وذلك ناشئ من المرض الصبي المصاب به صاحبها وليس فيها الا بعض شعيرات اشتشن من شعر الظبي العزيز وأما ملابسه فكانت غريبة الشكل لانها كانت تشبه ملابس المهنة والواقع ان خلقته المشوهة كانت ابشع شئ لناظره

فعندما رأت رفقة هذا الرجل أخذت تتأمل فيه وتقيس ما بينه وبين فؤاد الحسن الوجه والخلقة ولما لم يعجبها وقعت فى غاية الاسف والحيرة وصارت تتفكر فيما تفعله من الرجوع الى فؤاد بالثانى فكانت تنسه بخطابات متتابعة عشقا فى انها تراه مع ان فؤادا بعد سفرها مشوقته لم يحبه البلد ولا سكانها وحتم على نفسه التغرب عن الاوطان ولله در من قال فى مثل هذا الحال

رأى اللوم من كل الجهات فراعه * فلا تنكروا اعراضه وامتناعه
ولا تسألوه عن فؤادى فانى * علمت يقينا انه قد أضاعه
هو الظبي أدنى ما يكون نفاره * وأبعد شئ ما ينال ارتياعه
وياليته قد كان من أول الهوى * أطاع عذولى واكتفينا نزاعه
فما راشنا بالسوء الا لسانه * وما خرب الدنيا سوى ما أشاعه
أشاع الذى أغرى بنا ألسن العدا * وطير عن وجه التغالى قناعه
وأصبح من أهوى على فيه قفله * يكتم خوف الشامتين انفجاعه
وآلى على أن لا أقيم بارضه * وأحرمنى يوم الفراق وداعه
فسرت وسرى خطوه والتفاته * الى فاتنى فارجو ارتجاعه
ذرعت الفلا شرقا وغربا لاجله * وصيرت اخفاف المطى ذراعه
فلم يبق برّ ما طويت بساطه * ولم يبق بحر ما رفعت شراعه
كأنى ضمير كنت فى خاطرى النوى
أحاط به واشى السرى فاذاعه

وبعد ذلك سافر الى احدى بلدان فرانسا حتى يضيع الخاطر الذى فى باله فهناك وردت اليه خطابات رفقة المغرمة فاعرض عنها وانتهى أمره الى كونه تداخل فى اشغال التجارة ومعرفة الناس واتصال العلائق بينه وبين جيرانه ولم يزل على هذه الحالة مدة من الشهور وحتى تعارف ببنت ظريفة من عائلة شريفة وتزوج بها هذا ما كان من أمره وأما جعفر حبيبه المصرى فانه بالمصادفة كان توجه الى بلاد فرانسا لقضاء اشغال كانت له هناك وبينما كان راجعا من المنتزه يوم أحد اذ تلاقى مع فؤاد وزوجته فوقف متعجبا لانه كان يظن ان فؤادا قد مات ثم صرخ قائلا أأنت فؤاد لم تزل على قيد الحياة يا عزيزى فصاح فؤاد قائلا لجعفر وتعانقا فقال جعفر لفؤاد وما الذى تفعله هنا فاجابه قائلا انى فتحت بيت تجارة هنا وتزوجت ووجدت نفسى فى أرغد عيش لله مزيدا الحمد وانت لماذا أتيت هنا فقال أنا جئت لقضاء اشغال وانتهت لكنى هنون من الزمان الذى سمح لى بان أرانى قبل سفرى فنؤاد مع كونه فى راحة تامة مع زوجته لم تزل عن فكره صورة رفقة فكان يظن ان حبه لها قد انطفأ لكن رؤيته لجعفر هيجت أشجانه وبلبلت احزانه الى التى كانت أولا عزيزة عنده فصار رغما عنه يريد الوقوف على ما حصل بالتى خانت حبه فهما كانت الرجال الذين ينبغى أن يحلوا بالهم من مثل الافكار لم يزيدوا فى مثل هذا الحال ممن يكون عمره عشرين سنة ولذا كان فؤاد متولعا بالوقوف على ما قد حصل لرفقه فدعا جعفرا لتناول الطعام عنده فلم يتأخر ذاك الحبيب وتوجها معا الى البيت وبعد تناول الطعام قال فؤاد لجعفر وما الذى يقوله ناس مصر فى حقى فقال جعفر قد قالوا انك ذهبت تابعا اثر معشوقتك التى كانت

بجواري وشاع هذا الخبر على ألسنة العالم أياما كثيرة ونفموا الامر وأكثروا اللوم نظرا لذهابك في اثر بنت عندورة ثم تناسوا هذا الامر شيأ فشيأ حتى ان غيابك وغياب رفقة لم يلتفت له أحد الآن فهذه الاخبار والنوادر كانت كلهب النار الخارجة من جهة ما عند ما يراها الانسان يلتفت لها ويسأل عنها ويجتمع الناس حولها وتظنها حريقة وعند ما تقل اشعتها شيأ فشيأ ويصعد دخانها يرى انه لم يبق هنالك خوف ولا خطر فتتلاهى الناس عنها وتذهب الى حال سبيلها حتى انه لما سقطت آخر شرارة منها على الارض لم يكن بقي هنالك أحد لدراها وهكذا حصل أيضا في قضية رحيلك واعلم يا عزيزي ان القدر الذي اطلعني للتوجه الى بلاد سوريا قبل حضوري الى هنا سمح لي بالمقابلة مع رفقة فوجدتها في حالة يرثى لها الحاسد لانها العالم تغير سلوكها اتركها زوجها وهي الآن مع رجل يضربها ويتمتع بمالها ولما وجدت نفسها مطروحة من عيون الناس ولم يلتفت لها أحد التزمت ان تتباعد عنهم فهذا هو العذاب الذي تقاسيه من عواقب سلوكها وافعالها فسألتها عنك فقالت لي وهي تبكي وتشرح انها كتبت لك المرار العديدة ولم يرد لها جواب وهي متأسفة على ما فعلته معك وعلى افعالها التي ما كانت تخبرك بها وقالت أيضا انها ما كانت محققة ولكن كبرياؤها وكيدها قد أضاعا قيمتها عندك وما كان يمكنها ان تعترضك لان كل شيء كان ضدها وقد عرفت كدرك وغضبك ولم تطلب من الله الا شيأ واحدا وهو جواب واحد منك مهما كان ولو قاسيا عن أحد خطاباتها فعند ما سمع فؤاد هذا الكلام قال أنا لا أريد ان اسمع شيأ من أخبارها من الآن فصاعدا الا التي قبل كنت أحبها

واعتقد

وأعتقد فيها حسن الاعتقاد ولكن لله در القائل حيث قال في مثل هذا الحال

ان كان منزلتي في الحب عندكم * ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
امنية ظفرت روحي بها زمنا * واليوم أحسبها أضغاث أحلامي
وان يكن فرط وجدي في محبتكم * اني فقد كثرت في الحب آثامي
* ولو علمت بان الحب آخره * هذا الهيام لما خالفت لوامي
أودعت قلبي الى من ليس يحفظه * أبصرت خاني وما طالت قدامي
لقد رماني بسهم من لواحظه * أصمى فؤادي فواشوقي الى الرامي

وأما الآن فلم تكن عندي الا بصفة المرأة المسماة مانون ليسكوه التي كانت تسلم نفسها الاول من حضر اما تظر الجوهرات او القسالي مع ان تلك المرأة المدعوة مانون ليسكوه ولو انها ماتت في انحلاله لكنها ماتت بين يدي معشوقها الذي حفر لها المقبرة وسقاها بعد اسمه وأما رفقة الصياد فمثل مانون فانها ربما عوت بدون ساوي ثم بعد ما سكنا سنة من الزمن أخذ فؤادي يقول ان المرأة التي تكون صغيرة السن وجميلة المنظر عندما تجد نفسها أولا في حيازة رجل هرم كالماردي صاحبها الاول الذي كانت تدعي انه المساعد لها ثم مع رجل قبيح كالتاجر الارمني الذي غرها بكثرة ماله فصورها اذا لم تجد انسانا تصوحا أو طارحا لها مع كونها طليقة الحرية المتلفة النساء كما انها اذا وجدت عندها ما تشتهيه وتشتهيه ولم تكن قد بلغت العشرين سنة من العمر ماذا تريد منها ان تفعل وخصوصا اذا كانت مترددة بين كثير من العاشقين لها فأين تجد المدافعة عن نفسها مع زوج بخيل حريص لا يتفكر الا في جمع المال فيها الطبيعة تضطرها الى ان تخدع وتسلم ولا

تفكر في الرجل الذي تريده بل جل قصدها واقصى مرادها قبل كل
شئ التعرف بالشئ المستحدث ثم بعد ما انتهيا من كلامهما مكث جعفر
مع فؤاد ونزوجته ساعات قلائل وقام وحياهم تحية الوداع ويسافر
حيث لم يكنه زيادة الاقامة معهم وبعد ذلك ورد خطاب لفؤاد من
جعفر يخبره ان عاشق رفقه ماتت بسبب ما حصل لها من الغيرة من
سلوكها هذا ما كان من أمرها وأما فؤاد فانه بقي في أهنا وأرغد
عيش ولم يمتنع عليه بعد ذلك تذكار رفقة وهدأت نفسه وعاش مع
زوجته في السرور والهنا والحبور الى ان أتاهم هادم اللذات
ومفرق الجماعات والبقاء لله الواحد القهار

بجسمه من أزاح عن قلبه حبيبه كل غصة ثم طبع وتمثيل هذه القصة
بالمطبعة العامرة الزاهية الزاهرة في ظل ذي السلم والعدل المولى
اسمعيل بن ابراهيم بن محمد علي شمولا بادارة من عليه أخلاقه
تولى حضرة حسين بك الحسني ونظارة من لم يزل ثمرة ذكائه يجني
حضرة محمد افندي حسني وملاحظة ذي الرأي المسدد حضرة
أبي الامين افندي احمد وكان تمام طبعه وانشرافه تمثيله ووضعه
في اثناء الشهر العظيم الشان وهو شهر شعبان من سنة
تسع وثمانين ومائتين وألف من هجرة من خلقه
الله على أكمل وصف صلى الله وسلم
عليه وعلى آله وصحبه كل
ناسج على منواله
آمين